

تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

هذا كتابٌ في التربية الفكرية. للوهلة الأولى، قد يبدو مصطلح «التربية الفكرية» في نظر البعض مصطلحًا متناقضًا ينتمي إلى حقلين متغايرين، لا صلة بينهما. فالتربية تتصل بإصلاح النَّفس وتهذيب أخلاقها، أما سلامة الفكر فشرطها إصلاح العقل وتقويم أدواته التحليلية والمنهجية، فما وجه العلاقة بين هذين المجالين؟

في هذا الكتاب الذي بين يديك وتحت ناظريك، لا ينفصل القلب عن العقل، ولا العقل عن القلب، وما آفة عصرنا الذي بات يُسمَّى بـ«عصر ما بعد الأخلاق» إلا استحكام الانفصال والقطيعة بين مَلَكَاتِ الإنسان النفسية والروحية من جهة، ومَلَكَاتِهِ العقلية والفكرية من جهة ثانية. فصار الإيمان مسألة شخصية تختصُّ بمملكة القلب، ولا تخضع لمعيارٍ خارجيٍّ، ولا يشهد لها شاهد حقٌّ إلا نفسها وشعورها، أما العقل فصارت مهمته استكشاف نظام الأسباب الذي يحكم الظواهر الموضوعية، دون أن يورث ذلك الذاتَ عبرةً أخلاقيةً، أو جوابًا عن أسئلة ماذا؟ ولماذا؟ فضلًا عن أن يورثه خشيةً وخشوعًا وإذعانًا للخالق المُدبِّر.

ولأنَّ النفس الإنسانية لا يمكن أن تقنع بالبقاء بلا هداية أخلاقية ولا عزاءٍ روحيٍّ، فقد شهدت فلسفة الأخلاق في الفضاء الغربي نموًّا في نقاشات العقل العملي، واستخرجت من الفلسفات قديمها وحديثها صيغًا للعيش، توفِّر الحدَّ الأدنى من المعنى والرجاء والعزاء في الحياة المعاصرة. غير أن مملكة العقل العملي - منذ كانط - فقدت رسوخها واستقرارها على أرضية العقل المحض، فلم يعد لها سندٌ من الغيب أو الحقِّ المطلق، بل أحلتَّ المطلق داخل الضمير الإنساني. ولم تلبث هذه الصيغة الجديدة حينًا من الوقت حتى أخذت بالتحلُّل والتفكُّك، مستسلمةً لسيرورات الرغبة النشطة ونوازع الأثرة والاستهلاك، حتى استبدت بالإنسان الحديث ضروبُ الوعناء والشتات الأخلاقي.

وإذا كان هدف الفكر هو إصابة الحق، والعمل بمقتضاه بما ينفع الناس، فإن

شروط تحقيق ذلك مرهونة بتحزُّر الذات المفكِّرة من جملة من العوائق والصوارف النفسية والاجتماعية والمعرفية. فالفكر لا يخلق في فراغ، بل تعتريه آفات الجمود والكسل، وقد يستسلم لما استقرَّ حوله من طباع ثقافية وعادات فكرية خاطئة، أو ينحرف بأغراضه تلبيةً لأهواء نفسية استبدَّت بصاحبه كبيراً أو حسداً أو شرهاً للسلطة. ومن ثمَّ فإن إطلاق إمكانات الفكر وتصويب مقاصده مشروطٌ بتحريره من هذه العوائق والصوارف.

في هذا الكتاب، يأخذ بأيدينا وأعيننا أستاذ فلسفة المعرفة والقيم في جامعة سطيف ٢ بالجزائر، الدكتور عبد الرزاق بلعقروز، في تدريب فلسفي وروحي وأخلاقي يبدأ من تشخيص معوقات التربية الفكرية، وسبيل تجاوزها. وبعد أن يُحكّم المؤلف إطاره المنهجي الجامع بين أسئلة المعرفة والقيم، وأنظمة العلم والأخلاق، ينطلق إلى تنزيل هذا المنهج على مباحث الفلسفة الأخلاقية المعاصرة والفكر الإسلامي، شارحاً ومصوّباً ومنتقداً ومؤسساً لإمكانية الانعتاق من أسر ثقافة ما بعد الأخلاق.

عُرف الدكتور عبد الرزاق بلعقروز (١٩٨١-...) باشتغاله الثريِّ بمبحث فلسفة القيم والأخلاق، وما يتصل بها من أسئلة المعرفة والعلوم الاجتماعية، وأسئلة الدين والحداثة، والفكر المعاصر. وقد صدر له حتى الآن ١٤ كتاباً في هذا الباب، كما أسَّس وترأس عدداً من الجمعيات والمشاريع الفلسفية التي تدور في فلك هذه المباحث.

إن مجرد الإطلاع على مراجع هذا الكتاب من شأنه أن يحيط القارئ علماً بسعة مصادر المعالجة التي يقدّمها هذا الكتاب، الذي ينشط في تثوير الإرث الأخلاقي والروحي الإسلامي وإبراز راهنيته في الجدل الفلسفي والأخلاقي المعاصر، في تفاعل منفتح وأصيل في آنٍ معاً. أما ما دفع مركز نهوض للدراسات والبحوث للعناية بهذا الكتاب ونشره للقراء العرب فهي أهميته النابعة من نقاط ثلاث:

١ - حاجة كلِّ مشتغل بالفكر إلى العناية بالتربية الفكرية، التي ترسم للنفس مسالك الاستفادة من العلوم العقلية لتهديب نوازعها، وترسم للعقل خريطة الآفات التي قد تعتريه وترديه.

٢- قناعتنا بأهمية الإسهام في النقاش الأخلاقي في عصرنا الذي أخذ يفقد المعيار الأخلاقي الضابط، وباتت مجتمعاتنا فيه بحاجة إلى تجديد القول الفلسفي والأخلاقي وتنزيله في واقعها للحفاظ على عمراتها وخيريتها، وللهوض بواجبها الحضاري الأخلاقي.

٣- أن الكتاب يقدم مثلاً رفيعاً في الكتابة الفلسفية والأخلاقية، التي تفتح على مصادر شتى، مع حفاظها على الاقتدار الفلسفي الأصيل والثقة بسعة إرثنا الحضاري وخصوبة إمكاناته.

يُعنى مركز نهوض للدراسات والبحوث برفد القارئ العربي بكل ما يُسهم في مشروع النهوض الحضاري، وأول أبواب ذلك هو صناعة الإنسان ورفع سويته الفكرية والأخلاقية، وإصلاح عقله ووجدانه. وقد نشر المركز في هذا السياق كتاب «المفاهيم الأخلاقية بين الائتمانية والعلمانية» لفيلسوف الأخلاق طه عبد الرحمن في جزأين اثنتين، بالإضافة إلى مجموعة من المواد البحثية المنشورة على موقعه الإلكتروني.